تقرير

خليل حرب
Khalilharb66@gmail.com

20 عاماً على غزو العراق: ماذا فعلتم بالعالم؟

20 عاما مضت على الغزو الاميركي للعراق، وهي حرب لا سابق لها في التاريخ، ولا تزال تداعياتها مستمرة حتى الان، وتخضع لنقاشات وتحليلات في محاولة لفهمها، او دراسة تأثيراتها، بما في ذلك الصدع الذي احدثته في المنطقة برمتها واختلال النظام الدولي، والاهم كلفتها على الحياة البشرية

كانت لحظة اطلاق الصاروخ الاميركي الاول ايذانا ببدء الحرب على العراق في 20 اذار 2003 مثابة ارتقاء تيار المحافظين الجدد الى مقاليد التحكم بالامبراطورية الاقوى في التاريخ، ومحاولة التسيد على ساحات الصراع في العالم، وفي الشرق الاوسط بشكل خاص، وكان من بين هؤلاء ممن التحقوا بادارة الرئيس جورج بوش وقتها، بول وولفويتز واليوت ابرامز وريتشارد بيرل وجون بولتون، وخلفهم جيوش من المستشارين والباحثين والاعلاميين من دعاة سياسة التدخل خارجيا وفرض السلام بالقوة العسكرية، وبطبيعة الحال، اظهار الولاء الاكبر في الدفاع عن اسرائيل ومصالحها.

من المهم فهم هذه الخلفية من اجل اكتمال خيوط المشهد، وليس من اجل تقديمها باعتبارها التبرير الوحيد للغزو الذي قادته الولايات المتحدة، ومعها بريطانيا اساسا، تحت مسمى البحث عن اسلحة الدمار الشامل، فيما اظهرت العديد من مواقف المسؤولين الاميركيين والبريطانيين السابقين لاحقا، والعديد من لجان التحقيق والكتب الصادرة حول الحرب، ان غزو العراق كان سيتم تحت اي ذريعة، وربما مهما كان الثمن.

> **تسيّد "المحافظون الجدد" بحكم واشنطن**

غزو الارض.

اعترف الاميركيون تباعا كيف انهم لم يخططوا تماما لـ"اليوم التالي" لسقوط النظام في بغداد، ولم يضعوا التصورات اللازمة لفكرة اعادة بناء الدولة التي يستعدون لتهشيمها بالكامل، ناهيك بأن شكوكا كثيرة اثيرت بعد سنوات من الحرب، عن ان ادارتي جورج بوش وطوني بلير لم تكونا واثقتين من الادلة الشهيرة حول برامج التسلح العراقية، ورغم ذلك ساهمتا في الترويج لاكاذيب دعائية عبر ادواتهما الاعلامية، ثم من على منبر الامم المتحدة نفسها، بأن الخطر على العالم وشيك.

لا تزال الذاكرة تستعيد ما قالته السفيرة الاميركية السابقة لدى الامم المتحدة عام 1996 مادلين اولبرايت (قبل توليها الخارجية) في خلال مقابلة تلفزيونية عن اثار العقوبات الغربية على العراقيين منذ ما بعد حرب الخليج عام 1991، بعدما سألتها المذيعة: "سمعنا ان نصف مليون طفل عراقي ماتوا، وهذا عدد اطفال اكثر من الذين ماتوا في هيروشيما، هل الثمن يستحق؟"، فردت اولبرايت "اعتقد انه خيار صعب جدا، ولكن نعتقد ان الثمن يستحق ذلك".

لم تتغير هذه العقلية الاميركية، لا بل ربما غذتها هجمات 11 ايلول على نيويورك وواشنطن، وتشابكت مع صعود المحافظين الجدد الذين كانوا يريدون اعادة صياغة العالم ومصالح الولايات المتحدة وفق عقائدهم الخاصة، وكانت كل الظروف تبدو مؤاتية: الاتحاد السوفياتي كان قد انهار، والاوروبيون مشتتون كالعادة، والعقوبات انهكت الجسم العراقي طوال اكثر من 12 سنة امنيا وعسكريا ومعيشيا وصدام حسين منذ غزو الكويت عام 1990 يكاد لا يجد حليفا.

وغزو البشر.

وكان نظام صدام يعاني ايضا معنويا بعد تعرض نجليه لمحاولات اغتيال، وقبلها انشقاق صهره حسين كامل مجيد الى الاردن. ليست صدفة تلك التي جعلت وزير الخارجية الاميركي وقتها كولن باول يأتي الى دمشق في 2 ايار من العام 2003 بعد ايام فقط على سقوط بغداد في 9 نيسان.

لم يكن التوقيت عبثيا ولا الاهداف التي حملها معه الوزير الاميركي الى الرئيس السوري بشار الاسد، والتي عكست نشوة اميركية بالنصر السهل والسريع الذي تحقق في العراق، والذي اريد له ان تكون له نتائجه السورية والايرانية واللبنانية والفلسطينية. ذهبت صحيفة "فايننشال تايمز" الى حد وصف ما حمله باول معه الى دمشق في وصفها بانها "اوامر"، بينما قال الوزير الاميركي انه طلب من دمشق التكيف مع الاوضاع الجديدة في المنطقة بعد حرب العراق واستئناف مسار السلام الفلسطيني-الاسرائيلي من خلال "خطة الطريق" ونشر الجيش اللبناني في الجنوب وابعاد حزب الله عن الحدود الفلسطينية واخراج قيادات منظمات المقاومة الفلسطينية من سوريا، وغيرها من المطالب.

اسقاط تمثال صدام حسين في بغداد.

كان من الواضح ان الخطابات الاميركية حول نشر الديموقراطية والسلام والاستقرار في العراق تحولت الى شعارات براقة بلا قيمة وقتها، فيما كان البلد يدفن مئات الضحايا يوميا. في حين اتضح ان افضل ما انتجته العملية العسكرية على الصعيد السياسي الداخلي ولادة فكرة لبننة العراق بنظام سياسي اقره دستور عام 2005.

مع انشائها مئات القواعد والمواقع والثكنات العسكرية للقوات الاميركية وحلفائها في العراق، اصبحت الجيوش الاميركية بمختلف اذرعها على الحدود مع ايران وسوريا. بهذه الاجواء جاء كولن باول الى دمشق، فيما اصبح الحضور العسكري الاميركي ممتدا من مضيق هرمز عند مدخل الخليج صعودا نحو البر العراقي في محاذاة الحدود الايرانية، فيما شعرت اسرائيل ان خارطة توازن القوى في المنطقة تغيرت لصالحها تماما.

بالفعل دفنت اسرائيل المبادرة العربية للسلام تحت انقاض بيوت الفلسطينيين، وسقطت دعوة حوار الحضارات التي اطلقها الرئيس الايراني محمد خاتمي تحت اقدام الجيوش الاميركية التي احتشدت عند الحدود الايرانية وفوق اشلاء مئات الاف العراقيين. فتح الغزو الاميركي جروح التوتر الطائفي والمذهبي، لا في العراق وحده، وانما في ارجاء المنطقة كلها. ثم اتت لحظة اغتيال رئيس الوزراء اللبناني السابق رفيق الحريري في العام 2005 لتضفي على مشهد الانقسامات الاقليمية ابعادا خطيرة، وتبعها عام 2006 اعدام صدام حسين بطريقة مثيرة، ومصورة عند عمد لتعميم التشظي. وبين الحدثين كانت الحرب الاسرائيلية على لبنان في تموز عام 2006، وقبلهما صدور القرار 1559 المطالب باخراج القوات السورية من لبنان، في حين تواصلت سياسة فرض العقوبات على طهران وصولا الى يومنا هذا. ◄

◄ لكن كيف بدأ كل ذلك؟

اعلن بوش ان القوات الاميركية بدأت عملية عسكرية في العراق في 20 اذار 2003، في عملية اطلق عليها اسم الحرية من اجل العراق، حيث بدا الغزو بغارات وضربات صاروخية على بغداد ثم تحركت القوات البرية من الكويت في اتجاه الجنوب ليتوالى العدوان على المدن العراقية، وصولا الى 9 نيسان حيث اعلن عن سقوط بغداد والسيطرة العسكرية عليها، ثم غرقها في الفوضى. ولم يمر وقت طويل قبل ان يعلن الحاكم الاميركي للعراق بول برمر امرا بحل الجيش العراقي واجهزة المخابرات، اضافة الى البدء بتنفيذ ما يعرف بسياسة اجتثاث البعث من المؤسسات الحكومية. وفي كانون الاول من العام نفسه اعتقل صدام حسين مختبئا في حفرة قرب تكريت.

غرق العراق في دوامة من الدماء، مقاومة ضد قوات الاحتلال، وتصفيات بين احزاب وميليشيات وعشائر وطالت "بعثيين" سابقين، وعمليات ثأر وانتقام ذات طابع مذهبي متبادل، ودخول تنظيم القاعدة بعمليات انتحارية لم تستثن مكونا عرقيا او طائفيا.

من عام 2003 وصولا الى عام 2011 حيث

بوش خلال لقاء مع جنود اميركيين.

"الاميركيون لم يخططوا لـ"اليوم التالي"

اعلنت واشنطن انسحابها عسكريا من العراق، لم يتم تقديم احصاء موحد وموثق للضحايا. فالجيش الاميركي كان يتحدث عن مقتل نحو 77 الف عراقي بين كانون الثاني 2004 وآب 2008، وفي احصائية صادرة عن مؤسسة (Opinion Research Business) البريطانية، اشارت الى ان الحصيلة بلغت مليونا و33 الف قتيل منذ الغزو العام 2003. عام 2013 كشفت مجلة "ناشيونال جيوغرافيك" ان الغزو ادى الى تشريد مليون و100

من القصف على بغداد.

الف عراقي. ووفقا لارقام وزارة الدفاع الاميركية، بلغ عدد قتلى الجنود 4487 عنصرا في العراق منذ الغزو حتى الانسحاب، بينما تجاوز عدد الاصابات 32 الف جندي. فيما كشفت صحيفة غارديان البريطانية عن خطف 150 طفلاً عراقياً سنويا بين عامي 2003 و 2005، وبيعهم في السوق السوداء. اما على صعيد النساء، فتشير التقديرات الى تعرض 40 الف سيدة للخطف واعتقال الالاف منهن في السجون الاميركية.

لا تتضمن هذه الارقام الحصيلة المفترضة في ما مرحلة ما بعد عام 2013 مع صعود تنظيم داعش، ثم اعلان فتوى الجهاد الكفائي من المرجع الاعلى السيد علي السيستاني وتشكيل الحشد الشعبي من المتطوعين العراقيين الذي تدفقوا بمئات الالاف من اجل دحر التنظيم الارهابي وصولا الى الاعلان عن هزيمة داعش من جانب رئيس الوزراء العراقي الاسبق حيدر العبادي في 9 كانون الاول 2017، مع كل ما رافق هذه السنوات من مذابح وتفجيرات وجرائم ابادة جماعية ومقابر.

وذكرت صحيفة واشنطن بوست في 7 اذار 2023 ان الحرب الاميركية على العراق تعتبر من بين ابرز الاسباب التي ادت الى تصاعد الدين العام الاميركي ليصل حاليا الى 31 تريليون دولار. واوضحت الصحيفة انه بعد هجمات 11 ايلول الارهابية قامت الولايات المتحدة بغزو العراق، وامضت نحو 20 عاما في خوض الحروب في الشرق الاوسط، وهو ما تسبب في زيادة الاموال المخصصة للبنتاغون وقدامى المحاربين، مشيرة الى ان الحروب في العراق وافغانستان كلفت الامة الاميركية ما بين 4 تريليونات و 6 تريليونات دولار. لكن بحسب "معهد واتسون" الاميركي، فان ارقام السنة المالية 2022 تشير الى انفاق الحكومة الاميركية اكثر من 8 تريليونات دولار في حروب ما بعد 11 ايلول. وبالاجمال، شارك نحو مليون جندي اميركي من مختلف الوحدات العسكرية على مدى سنوات حرب العراق. وتشير دراسة واتسون الى ان تكلفة الحكومة الفيديرالية للعمليات العسكرية في العراق تقدر بنحو 2 تريليون دولار، اي ما يقرب من 8 الاف دولار لكل دافع ضرائب اميركي، وهو ما يمثل 9% من الدين القومي، ويحذر التقرير من ان ديون الحرب سترتفع الى 6.5 تريليون دولار بحلول عام 2050.

تواريخ بعد الغزو

1 ايار 2003 : بوش يعلن انتهاء العمليات القتالية الرئيسية من على ظهر حاملة الطائرات "يو اس اس ابراهام لنكولن".

24 كانون الثاني 2004: ادارة بوش تعترف بأن حججها قبل الحرب حول المخزونات الهائلة من الاسلحة الكيميائية والبيولوجية وحتى النووية في العراق تبدو خاطئة. وقال كبير مفتشي الاسلحة الاميركيين السابق ديفيد كاي للكونغرس "كنا جميعا مخطئين تقريبا".

28 نيسان 2004 : ظهور ادلة وتسريب صور على فضيحة معاملة السجناء داخل سجن ابو غريب الذي تديره الولايات المتحدة.

15 تشرين الاول 2005: عام الانتخابات بالنسبة الى العراق، اذ بعد التصويت في استفتاء على الدستور الجديد، صوت العراقيون لانتخاب برلمانهم وتشكيل حكومتهم الاولى.

9 تموز 2006: وفيات المدنيين العراقيين بلغت ذروتها بتقديرات تتراوح بين 1000 و3500 لهذا الشهر.

1 حزيران 2007: بدأت القوات الاميركية بتجنيد افراد العشائر فيما يعرف باسم "الصحوة" في محافظة الانبار لحمل السلاح ضد تنظيم القاعدة في العراق.

3 اذار 2008: الرئيس الايراني محمود احمدي نجاد في بغداد، وهي المرة الاولى التي يزورها رئيس ايراني منذ الحرب العراقية الايرانية في الثمانينات.

4 تشرين الثاني 2008: باراك اوباما يفوز في الانتخابات والذي يقوم بحملته الانتخابية على تعهد بسحب القوات المقاتلة في العراق في غضون 16 شهرا من توليه منصبه.

31 آب 2010: بعد اكثر من 7 سنوات من الحرب، و4400 قتيل اميركي، وعشرات الآلاف من المدنيين العراقيين الذين قتلوا، انهت الولايات المتحدة رسميا مهمتها القتالية في العراق.

18 كانون الاول 2011: مغادرة آخر الجنود الاميركيين للعراق لانهاء نحو 9 سنوات من الاحتلال.

كانون الثاني 2014: تنظيم ما يسمى الدولة الاسلامية في العراق والشام (داعش) يتسلل الى مدينتي الفلوجة والرمادي، وفي حزيران 2014 يحتل مدينة الموصل. بعدها تطلب الحكومة العراقية من الادارة الاميركية دعمها عسكريا.

ايلول 2015: انشاء مركز امني مشترك بين العراق وسوريا وايران وروسيا لمكافحة الارهاب.

كانون الاول 2017: اعلان تحرير كامل الاراضي العراقية من تنظيم داعش.

كانون الثاني 2020: اغتيال قائد فيلق القدس في الحرس الثوري الايراني قاسم سليماني ونائب قائد الحشد الشعبي ابومهدي المهندس قرب مطار بغداد، والقوات الايرانية ترد بهجمات صاروخية بعيدة من داخل ايران على قواعد اميركية في العراق.